البقاء للبذور والمخابر

بقلم صدر الدين شرف الدين

أي امتحان هذا ان أقف على رمسك يا أخي ؟

وماذا يقول اخ وهو يدلي باخيه الى المستودع الرهيب ؟

ماذا يعطي الفاقد عير السلب الأبله والوجوم الحائر ؟

ترى أرزؤك بكرُ هذه السنّة ؟ أأنت اول اخ مودَّع، وأنا اول اخ مودِّع ؟

ان لك عندي اكثر من واحدة . لك عندي حق الأخوة، ولك عندي يد التربية والتعليم ، ولك الصداقة ، وإذا لم يكن لي قِبَل بوفاء هذه الديون الجسام جملة، فهب لي وفاءها اقساطاً . لقد علمتني كثيراً ، فهلا علمتني كلمة يومك الحارم الواهب ؟

هلا علمتني كيف ارد عليك بعض عطائك ؟ واعيد اليك بعض وفائك؟

بلى لقد طهرتني بالنار من وجدك ، وريشتني بالأجنحة من جرحك ، وعلمتني من بعدك أضعاف ما علمتنيه من قربك، فانت في كل احوالك — والله — ينبوع تتزاخر انابيبه بالفيض، والخصب ، والسخاء ، وجذوة تتشعشع انوارها بالهبات ، والعطايا ، والثراء !.

علمتنيها كلمة تتسع ابعادها ، ما شاء الاتساع ، لأكرم المعاني الانسانية وارحبها وانداها . وليست دموعي الغزار المنهمرات الخرساوات هذه، سوى نقط تعجم كلمتك فيّ ، فتلون معطياتها خصالا . وتنشىء دلالاتها افعالا . وتعكس انفعالاتها اتصالاً وانفصالا .

في هذه الدموع حنينك ووجدانك. وفيها ألمك وحرمانك. وفيها إباؤك وحنانك . وفيها تواضعك وعنفوانك .

ولستُ انا منها الا كماء السحاب من السحاب، يجود البحرَ ، واكبر جُوده انه أعاد .

لم أعرف الدمع : هذه اللوعةَ المُرِنّة الناشجة ، إلا في يومك يا سيدي ، وانت تعلم انني امرؤ جمّ الهموم ، موفور الحظ من الكوارث ، والحمد لله ، وتعهدني جلداً صبوراً لا تتعاظمني الأحداث ، ولكنك لا تعلم ان يومك إنما هو القذى ، وغيره اشواك تُدمي ، ولكنها لا تُدمع ، ورزء يُدمعني ، على انه يزكّيني ، أفجع عندي ، وأشق علي ، من رزء يدميني ، ولا يبلغ ان يبكيني.

رأيتك بعيني هاتين تتخطى سماواتك العلى ، على صهوة : صهوة (براق) والارض تحتك كفة غربال ، تتطلع اليك ثقوبه عيونَ حب ، وتمثل ، واعجاب .

ثم رأيت (البراق) يظلع تحت غرمك الجبار ، ثم ينهار ، وانا مع الناس — يا للهول — نحار كيف نتلقاك ، ثم نحار !

لا تسل يا سيدي عن فؤادي ، فقد ضللته يومذاك ، وضلني في زحمة الشجون ، وها انا انتظره منذ عشرين عاماً ، ولعله كان ينتظرني .

وانى يخلص إليّ من عتمة ؟ أو اخلص اليه من ظلمة ؟

انه لن يعود !. له الله فؤاداً ما اوفاه !

وحسبي منه انه اهتدى اليك . حين ضل عني .

أرأيت الى رزئك : اي معانيه كان بكراً ... ايها كان البكر في مصارع الاخوان ؟

في رزئك عنصران رشحاه لهذه الاولية : محنته الشديدة ، بعد امكاناتك العظيمة ، ونفعك المرجو المحترَم .

ومن هنا كنا لا نبكي بك فرداً ، وإنما نبكي بك امة : أمل امة ، ولا نبكي بك جثماناً ، وإنما نبكي روحاً ، لا نبكي حدثاً ، وإنما نبكي حياة ، واي الناس تسأله عنك ، ثم لا تجده كان ينتظر بك الربيع في الاخضرار والافتوار ، ويرقب منك التقدم في الانعتاق والازدهار ؟

فما انا اول فاقد اخاً ، ولا انت اول اخ مفقود ، في ظاهر الواقعة ومجملها ، ولكنها الواقعة الاولى ، او التي توشك ان تكون الاولى في حقيقتها وتفصيلها .

ولكن .. ومع ذلك .. لا انت مفقود ، ولا انا فاقد ؟

في القديم فقدت امرأة عبقرية، اخاً سرياً ، فراحت ترثيه ما بقيت ، وما اطول ما بقيت ! وظلت تحييه حتى يومك ، وكان مما خلّدت فيه قولها :

ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي

وكدتُ — على شبه بينك وبين صخر — ان اتهم الخنساء بالانانية ، انها تنحل نفسها العذر بالتماسها الاسوة . بيد انك علمتني حزناً متفائلاً ردني الى أبعد مما يفهم مفسرو هذا الاعتذار، ففي صميم الائتساء ينهض قدس الحياة ، الذي اكرم (صخراً) وكل صخر ، واسماهم ، وفضلهم ، وأعزهم ، وهو المعنى المستقر وراء تحرفها في التعبير عنه ، باتخاذها القدوة من كثرة الباكين لا كثرة الباكين بالذات .

ولست اخالفها بهذا ، فالحق ان الحياة في ذاتها كريمة ، فلا تهون بفقد فرد مهما عظم ، بل لا تهون بفقد امة وان عظمت ، ذلك بان الافراد والامم جميعاً انما يتفاوتون كرامة ونباهة ، وضآلة وخمولاً ، بتفاوت حظوظهم من الحياة ، او بتفاوت حظوظهم من فهمها وخدمتها وتأصيلها وتنظيمها ومدها وتوريثها .

وانت يا سيدي أقرب الامثلة ، فإن فقدك لم يهل ولم يوجع ، الا لأن حظك من الحياة كان كبيراً عظيماً ، والا لأنّ الذي يرتجى على يدك من تأصيلها وتأثيلها كان كبيراً عظيماً .

الخنساء على حق فيما ذهبت اليه من قدر الحياة، والاعتراف بعدالة الموت ، والاكتفاء من اللوعة بالحزن الدافيء الكريم الخاشع الباعث . الحزن الذي لا يتصلّف فيتنكر ، او يتنكر به الهوج العاطفي لقانون التطور والاستمرار القائم على سنة (الموت) : هذه السنة الهادمة البانية .

هي على حق في هذا المذهب . وكادت النزعة العاطفية تغلبني فتحملني على الاساءة الى الشجرة : شجرة الحياة ، حزنا على غصن ناضر وريق مثمر من اغصانها ، وكادت تزلني زلة (الحكاية) في مثل قول الجاهلي :

وما كان قيس فقده فقد واحد ولكنه بنيان قوم تهدماً

ولكن الحزن المتفائل الذي علمتنيه ردني الى ما بدر للخنساء في عفويتها السابحة المتأملة ، فرحت اضيف الى اللقاح العقلي في مذهبها العاطفي :

— اننا منك على لقاء موعود ، فنحن اليك على الطريق .

— ثم اضيف انها رغبتك في الخلاص من عالم الكثافة القذر ، والاندماج بالعالم الشفاف الشريف ، عالم النور المشرق بنور ربه . وليس لنا أن نأبى ما ترضاه ، ولقد اعلم انك منذ عشرين عاماً ترتاض رياضتك الشاقة ، لتنضو هذا الاهاب ، هذا الجسم ، وتصفّ جناحيك مع الملائكة ، بعيداً عن دنيا تضيق بكل راشد ، وتتجهم لكل حر .

ولعل اولى من هذا وذاك بمنطق العزاء والتأسي ، أن نعود الى حقيقة الحياة ، فهل مت حقاً يا اخي ؟ وهل الموت ان تنضو هذا الاهاب؟ان تفارق هذا الجسد؟ان تخلع هذا الثوب؟.

لا . وان مصابك على فداحته لا يخدعنا عن الصواب . الحياة في دار الفناء هذه ، مساهمة في العمل والتوليد ، وفعالية من آثارها التجدد والاستمرار ، وتمتاز في الانسان عن غيره من الاحياء بالتجربة التي تعطيه اطول من أعمار الاغصان ، بانه يعيش مع التجربة سراجاً ينير الشعاب في طريق القافلة الصاعدة، يبدد بين يديها الظلمات عن المنعطفات والاخاديد .

ثم هي في دار البقاء استقرار : خلود استقرار ، متنوع على وجه أفضل وأتم .

واين الفناء منك على ضوء هاتين الحقيقتين ؟ .

الذين يموتون هم الذاهبون في غير عمل صالح ، ولاعلم نافع. انما تموت الاحطاب ، اما البذور والخمائر فلها البقاء الدائم ، والحياة الخالدة .

صدر الدين شرف الدين

مسابقة « الآداب » للقصة

تقيم « الآداب » مسابقة للقصة يحق لجميع ادباء البلاد العربية ان يشتركوا فيها بالشروط التالية :

١) ان تكون القصة موضوعة غير مترجمة ولا مقتبسة ولا منشورة .

٢) ان تعالج موضوعاً يهمّ الجماعات العربية او الفرد العربي .

٣) ان تكتب كلّها باللغة العربية الفصحى .

٤) ألاّ تتجاوز ثماني صفحات من « الآداب » .

اما الجوائز فثلاث :

الاولى : ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها .
الثانية : ١٥٠ » » »
الثالثة : ٥٠ » » »

تقبل القصص حتى اول شهر آب (اغسطس) من العام الحالي ١٩٥٣ .

وستتألف لجنة محكمة تعلن اسماء اعضائها فيما بعد . اما القصص الثلاث الفائزة فتنشر ابتداء من عدد تشرين الاول (اكتوبر) من « الآداب» .